

الأحنف العكبري: شاعر المكدين والمتسولين

أحمد الحسين

يعد الأحنف العكبري واحداً من شعراء الكدية المشهورين، قال عنه الثعالبي: شاعر المكدين وظريفهم ومليح الجملة والتفصيل فيهم⁽¹⁾، ونعته الصاحب بن عباد عندما أنشده بعض أشعاره: بأنه فرد بني ساسان في مدينة السلام⁽²⁾.

اسمه عقيل بن محمد بن عبد الواحد أبو الحسن التميمي النهشلي⁽³⁾، فهو من حيث الأرومة ينتسب إلى نَيْشَل، وهي إحدى بطون تميم، ويبدو أن سكناه المدينة وامتثانه الكدية والمسألة، وانتقاله بين البلدان والأمصار، أضعف علاقته بقومه وصلته بقبيلته، فلم نتبين من تلك العلاقة سوى صدى لفخر باهت، هو أقرب ما يكون للتعويض عن وضع اجتماعي يعيشه، وحاضر بائس يعاني منه ويكابده⁽⁴⁾.

وبيت من المجد الرفيع سمكته
ثقلت لي أثافيه تميم وخندف

وما يدعم هذا الاستنتاج أن الأحنف في مواطن عديدة كان يهجو قومه ويذم قبيلته ويتمنى لو كان ينتسب إلى سواها من الأقوام ما دامت هذه القبيلة لم تمد له يد العون والمساعدة ودفع غائلة الفاقة والحرمان عنه⁽⁵⁾.

* باحث من سورية.

(1) تيممة الدهر: الثعالبي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة: مصر 122/3.

(2) المصدر نفسه 122/3.

(3) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي: مطبعة الخانجي، القاهرة 301/12.

(4) ديوان الأحنف العكبري — تحقيق سلطان بن سعد السلطان، الرياض، ط 1 ص 353، ثقت: بنت وأقامت، وخندف: امرأة من قضاة صارت اسماً لقبيلة.

(5) ديوانه ص 265، الأنباط: قوم تسكن سواد العراق، الدسكرة: القرية، ديرقني: دير قرب بغداد، وسابور: من ملوك فارس.

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مِنْ أَنْبَاطِ دَسَكِرَةٍ
وَلَمْ أَكُنْ نَهْشَلِيًّا مِنْ بَنِي مُضَرَ

بَدِيرُ قُنَى، وَلِي صَفْرُ الدَّنَانِيرِ
وَكُنْتُ أَنْسَبُ فِي أَبْنَاءِ سَابُورِ

ولقب عقيل بن محمد الأحنف ونسبته إلى عكبرا، وهي مدينة صغيرة من مدن العراق تقع على شرق دجلة في طريق الموصل قرب أرانا وصريفين بينها وبين بغداد عشرة فراسخ⁽¹⁾ والأرجح أن ولادة الأحنف كانت بها، وأكثر إقامته كانت هناك، وبها توفي سنة 385 هجرية.

أما لقبه الأحنف فيرجع إلى عاهة أصيب بها وعيب خلقي في قدميه، والحنف كما تذكر معاجم اللغة: الاعوجاج في الرجل، وهو أن تقبل إحدى إيهامي رجله على الأخرى. قال الأصمعي: الحنف أن تقبل إيهام الرجل اليمنى على أختها من اليسرى، وأن تقبل الأخرى إليها إقبالا شديدا⁽²⁾.

وكتيراً ما كان الأحنف يذكر عاهته، ويرى فيها سبب فقره، ومبعث احتقار شأنه، ويسوغ بها امتنانه الكدية والاستجداء بين الناس⁽³⁾:

وأحمقَ أحول أضحى يُعيرني
بالعيبِ في قدمي والفقرِ والعَدَمِ
مستقباً حتفى جهلاً فقلتُ له:
العيبُ في الرأسِ أدهى منه في القدمِ

وبالرغم من هذا التحريج للعامة ومحاولة التقليل من تأثيرها النفسي عليه فإنه كان في أعماقه يشعر بنقص كبير ومرارة شديدة، عبّر عنها في أكثر من مناسبة فقال⁽⁴⁾:

إِنِّي أَمْرُؤٌ قَدْ أَخْرَبَ بِي حَنْفِي

قَصَّرَ بِي عَنْ مَنَازِلِ الشَّرَفِ

وكان يعزو نقصيره في طلب الرزق وعدم انتقاله وراء ذلك في مشارق الأرض ومغاربها إلى عاهته، ولو لا ذلك ما استقر به مقام في بغداد، ولا رضى بالعيش محروماً فيها⁽⁵⁾.

وما سكنتُ إلى بغدادَ مفتاحاً بابَ المعيشةِ عن جهلٍ ولا مُوقٍ

بَلْ عَاقَبْنِي حَنَفُ الرَّجُلَيْنِ عَنْ طَلْبِي وَجَهَ الْمَعَاشِ بِتَغْرِيبٍ وَتَشْرِيقٍ

بغداد دار لأهل المال طيبة
وللمفالسيس دار النذل والضيق

(1) معجم البلدان: ياقوت الحموي 142/4.

(2) لسان العرب: ابن منظور مادة حنف.

(3) دیوانہ ص 495.

(4) دہ اندہ ص 395.

(5) ديوانه ص 372، والموق: الحقيق والغباء.

مقاربة عامة:

والواقع أن الإحاطة بجوانب السيرة الذاتية للأحنف العكبري مما يتعذر على الباحث أن يلم بها، فالمصادر التي انتخبت بعض قصائده ومقطعاتها القصيرة أهملت حياته الشخصية، وفي هذا المجال يبقى شعره خير وثيقة تسعفنا في تتبع خيوط حياته الشخصية العامة، دون أن تسعفنا بمعلومات دقيقة أو تفصيلية عن ولادته وأسرته ونشأته، ومراحل تعليمه وعلاقاته الاجتماعية.

وما نجده من إشارات في شعره هو من قبيل الاعترافات الذاتية، بما تحمل من العمومية، ولكنها بالرغم من ذلك تبقى هامة، لأنها تضيء جوانب محطات أساسية من جوانب حياته وسيرته العامة.

يصف الأحنف ذاته بأنه شاعر وأديب وعالم عرف علوم الفلسفة والفلك والحكمة، لكن سوء طالعته رمى به إلى زمن انصرف أهله عن العلم والأدب وناصروا الأدباء والعلماء بالمناكدة والعداء⁽¹⁾:

أشكو إلى الله ما ألقاه من نفي
إن قلت قولاً حكيماً قال قائلهم:
يرون علمي إذا ذاكرتهم خرفاً
لعمان صيرد من بعده خلفاً
متى تمتلت عن فهم وفلسفة
سبوا أنبساط من جهل وما وصفا
أوفئت عن أدب أو ذكر مكرمة
سبوا ابن قيس وسبوا الشعر والحنفا

ويبدو أن الأحنف انشغل في مرحلة من مراحل حياته بطلب العلم وانقطع إلى القراءة والأدب فوجد في ذلك ما يغني عن متعة الأنس والزاد والشراب فكان يقول⁽²⁾:

ومحبرة تواسني بحبر
ورزومة كاغد في البيت عندي
أحب إلي من أنس الصديق
أحب إلي من عدل الدقيق
ولطمية عالم في الخد مني
أحب إلي من شرب الرحيق

ولكن مقومات هذه الصورة اهتزت حين اشتدت به الحاجة ولم يعد العلم يسعف حامله على تدبير أمور عيشه وأسباب دنياه، وصار الانقطاع إلى الأدب من سوء الطالع الذي لا يجلب سوى البؤس والفقر⁽³⁾:

(1) ديوانه ص 358.

(2) ديوانه ص 396، والكاغد: الورق والقرطاس.

(3) ديوانه ص 239.

حَسْبِيَ مَنَ الْحِرْفَةِ أَنِي أَمْرُو
وَمَنْزَلِي مَسْتَهْدِمٌ مَقْفَرٌ

مَعِيشَتِي مَن بَاطِنِ الْمِحْبَرِ
مَنْفَرْدٌ فِي وَسْطِ الْمَقْبَرِ

وكانت ذروة التحول في رؤية الأحنف عندما اكتشف أن القصيدة لا تغني عن رغبة الخبز. وأن الشعور لا يقوم مقام الدقيق في البيت وأن نداء المعدة الخاوية أقوى وأشد ضرامة من نداء العقل والخيال فقال⁽¹⁾:

إذا نفدت الدقيق فقدتُ عقلي
إذا ما البيتُ أعوزهُ الدقيقُ

وإذا كان الأحنف يروي في ديوانه الكثير من تجاربه اليومية والأحداث التي تقع في حياته، فإنه قليلاً ما يتحدث عن أهله أو أسرته، ومن خلال شعره ننتبين أنه مر بتجارب أسرية مخففة، وأن له زوجة مشاكسة قال فيها⁽²⁾:

وَأَنَّ إِلَهِي قَدْ بَلَغَنِي بِزَوْجَةٍ
نَقَارَ وَتَعَبَيْسَ وَوَجْهَ مَكَاخِ
وَكَانَ مَا يَتَمَنَاهُ⁽³⁾:

مُنَانِي مِنَ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ زَوْجَةً
وَدُودٌ وَلَوْ بِرَّةَ ذَاتِ عِفَّةٍ

مِنَ الْبَيْضِ حَسَنَاءُ الْخَلَائِقِ وَالْخَلْقِ
تُعِينُ وَتَجِدِي عِنْدَ مُتَسَعِ الْخَرَقِ

ويذكر الأحنف أن له بنتاً تمنى موتها قبل موته، ليس كراهية لها، ولكن إسفاقاً عليها، وخوفاً أن
تصير إلى زوج لئيم، يذلها ويشتتم أهلها.

ويشير الأحنف إلى الأمراض والأوجاع التي أنهكت جسده، وأضعفت قواه فيذكر منها إلى جانب عاهة الحنف وضمور الساقين العمى الذي أصيب به في أخريات أيامه وعلل الشيخوخة التي أنهكت قواه الجسدية، وتركته عاجزاً عن قضاء حاجاته وتصريف شؤونه الحياتية⁽⁴⁾:

صُرُوفُ اللَّيَالِي صَيَّرَتْنِي كَمَا تَرَى
وَأَلْتَمَسُ الْجُدْرَانَ بِالكَفِّ وَالْعَصَا

أَدَبُ دَيْيَبِ السَّخْلِ سَاعَةً يُولَدُ
وَأَحِبُّو كَمَا يَحِبُّو الْوَلِيدُ الْمُبْدَلُ

(1) دیوانہ ص 376.

(2) دیوانہ ص 199.

(3) دیوانہ ص 388.

(4) ديوانه ص 210، والسجل: ولد الشاذ الذكر أو الأنثى.

وَمَنْ عَاشَ مِنْ بَعْدِ الثَّمَانِينَ أَرْبَعًا
تَمَنَّى وَرُودَ الْمَوْتِ وَالْمَوْتَ يُخْلَدُ

شعر الأحنف:

ولقد أشار البغدادي وابن الجوزي وأبو الفداء⁽¹⁾ إلى شعر الأحنف وذكروا أن له ديواناً ضخماً ولكن مصادر الأدب والتراجم ومن بينها مؤلفات الثعالبي لم تحتفظ إلا بمادة قليلة من شعره لا تزيد في مجموعها عن بضع عشرات من المقطعات والنتف الشعرية.

وهكذا ساد ما يشبه الاعتقاد بضياع شعره، لكن اكتشاف نسخة مخطوطة من ديوانه بدد ذلك الاعتقاد، ووضع بين أيدي الدارسين والباحثين مادة شعرية على غاية من القدر والأهمية إذ قام الباحث السعودي سلطان بن سعد السلطان بتحقيق ديوان الأحنف⁽²⁾ وأصدر الطبعة الأولى من هذا الديوان سنة 1999، عن نسخة وحيدة محفوظة في مكتبة الملك فهد الوطنية، وكانت هذه النسخة من مجموعة مكتبة الأستاذ جميل أبو سليمان، التي جمعها أثناء إقامته في المغرب العربي، ومنها هذا الديوان المنسوخ في بغداد سنة 595هـ، وناسخها هو محمد بن علي بن إبراهيم بن محمد الكاتب، وتحتوي أكثر من 825 نصاً تراوحت بين قصائد ومقطعات، ضاعت من بينها نصوص قافية الهمزة، وحرف الخاء. وهذه النسخة لا تمثل كل أشعار الأحنف، فهناك مقطعات وقصائد وردت في مصادر أخرى، ولم يتضمنها ديوانه المحقق، مما يدل على أن جزءاً من شعره مازال مفقوداً أو مجهول النسبة إلى صاحبه.

أما الأغراض التي طرفها الأحنف في شعره فهي: الفخر والمدح، والهجاء والرثاء، والغزل، والوصف، والعزلة (الغربة) والشكوى، والزهد، والكديّة، والحكمة، وحين ننظر في هذه الأغراض نجد أنها تمثل ما عرفه الشعر العربي في عصوره المختلفة، ولكن النظرة النقدية لأغراض شعره تجعلنا نقول: إن الأحنف في فخره ومدحه، وهجائه ورثائه وغزله ومجونه، وزهدياته لم يستطع أن يخلق أو يبدع سواء من حيث الصياغة الفنية والإبداعية، أو من حيث المعاني والأفكار، وهو في هذا الجانب دون شعراء عصره الكبار، ولا يمكن أن يقارن بهم.

ولهذه الأسباب نتجاوز شعره في الأغراض السابقة بالرغم من أهميته، ونحاول أن نركز على موضوعات جديدة، كانت أكثر خصوصية في شعره صور فيها ذاته وآلامه وبؤسه وغربته وتشردّه، ومهنته وقلة رزقه⁽³⁾، وبمعنى آخر ستكون وقفنا عند تلك الجوانب من شعره التي صورت حياته، وتجواله وكديته، ونقده الاجتماعي، ومواقفه ورؤيته للناس والقيم والأخلاق في عصره، وهي موضوعات عالج بعض الشعراء الذين سبقوه قسماً منها، ولاسيما الشاعر أبو الشمقمق "مروان بن

(1) تاريخ بغداد 103/12، المنتظم لابن الجوزي، تحقيق عبد العزيز مطر، دار المعرفة 185/7، والبداية والنهاية: أبو الفداء، مطبعة السعادة 318/11.

(2) ديوانه ص 39.

(3) الأدب في ظل بني بويه: محمود غناوي الزهيري، مطبعة الأمانة، مصر ص 217.

محمد" الذي كان كثير الشكوى من سوء حاله، وشدة فقره، وبؤس بيته، الذي كان فارغاً من كل شيء، فهجرته حتى الفئران ورحلت عنه الحشرات والدواب

شکوی الحال:

شكا الأحنف العاهة والبؤس وكساد الأدب، وتبدل الأخلاق، وانحراف القيم، وكثيراً ما كان يشكو سوء حاله وقلة حيلته⁽¹⁾.

إني تفكرتُ في حُرْفِي على أدبي
 وجدتُ حظي من الدنيا وزينتها
 أقلُّ من حظ قرد في وقاحته
 وكلُّ شيءٍ له علمٌ وتسبيبُ
 وكلُّ شيءٍ فمكُتوبٌ ومحسوبُ
 والقردُ ذو ذنبٍ والقردُ مقبوبُ

ويشكو جوعه وعريه، وبؤس منزله⁽²⁾:

سَهَرْتُ وَمَا مَثَلِي يَنَامُ وَيَرْقُدُ
سَهَرْتُ وَلَمْ أَطْعَمْ مِنَ الْغَمَضِ لَذَةً
وَذَلِكَ لِأَنِّي سَاكِنٌ فِي غُرِيفَةٍ
عَقَارِبُ فِيهَا طَائِرَاتٌ وَوَقَعُ

وَفِي الْقَلْبِ مِنِّي جَمْرَةٌ تَتَوَقَّدُ
وَكَيْفَ هَجُوعِي وَالْحَشَالِيسَ يَبْرُدُ
وَأَفْرَدْتُ فِيهَا وَالْغُرُوبَ يُفْرَدُ
وَحَيَاتُ سُوءٍ فِي السَّقُوفِ تَرُدُّ

وَيَصِفُ لَيْلَهُ الطَّوِيلَ وَمَعَانَاثَهُ الشَّدِيدَةَ مَعَ زَمْيِرِ الشَّاءِ الْقَارِسِ وَالْبِرَاغِيثِ الَّتِي تُلْسَعُ جَسَدَهُ، فَلَا تَدْعُهُ بِرَقْدٍ أَوْ بِنَامٍ⁽³⁾:

بَرْدُ الشِّتَاءِ مَعْدِبٌ
وَحَوْلٌ وَرِيحٌ قَاتِلٌ
لَيْلُ الشِّتَاءِ هُوَ الْمَمَاتُ
كما يصف العبد فيقول (4):

يَشْقَى بِهِ الرَّجُلُ الْفَقِيرُ
وَنَهَارُهُ يَوْمٌ قَصِيرُ
وَفِي صَبْحِهِ النَّشُورُ

قالوا: أتى العيد، قلت: العيد عادته غمُّ الفقير وتفرُّجُ الميسير

(1) ديوانه ص 101، وأحرف: الفقر والحرم.

(2) دیوانہ ص 195.

(3) دیوانہ ص 252.

(4) دیوانہ ص 264.

يغدو الغني غداة العيد في طرب
 وذو الخصاصة في هم وتقتير
 وقد شبه الأحنف حياته في شدتها وصعوبتها بمن يمشي إلى وراء فلا يصل إلى غايته أو
 مبتغاه، ولهذا فهو يقول (1):
 كل يوم إلى ورا صرت أمشي كما ترى
 ولشؤمي وحرفتي في شئت في أرض غنبرا

ذم الزمان: (النقد الاجتماعي)

وقد صبّ العكبري نقداً شديداً على عصره وأهل عصره مشيراً إلى فساد القيم وغياب المكارم،
 وانحطاط منزلة الأدب ومكانة الأدباء فقال (2):

زهد الناس في العلو م وفي الشئ والأدب
 وأتانا زماننا بعجب من العجب
 صار أعلاه سافلاً فهو نكس قد انقلب
 كل ما كان في الدما غ فقد صار في الذنب

وقد كان الأحنف وغيره من الأدباء ضحية هذه الانكسارات التي كالت قيم المجتمع وأخلاق
 الناس حيث غابت المروءة، وقلّ الصدق، وشاعت الأنانية، وسادت بين الناس مظاهر الخديعة
 والتلون والرياء (3):

ذهب الوفاء ذهب أمس الزاهب والناس بين مخادع وموارب
 يبدون بينهم المودة والصفا وقلوبهم محشوة بعقارب

ويعاني الأحنف كغيره من شعراء عصره من صعوبة التواصل والتعامل مع أهل زمانه بسبب
 الاحتكام إلى نزعات الأهواء وغياب المنطق والمعايير الموضوعية، وهوان الهمم، وانهايار القيم (4):

من طالب الناس بالإصاف أحقدهم ومن نحاهم إلى الآداب عابود
 ومن دعاهم إلى فحش ومخزية وسوء فعل وتخليط أجابود

(1) ديوانه ص 283.

(2) ديوانه ص 117.

(3) ديوانه ص 129.

(4) ديوانه ص 95.

وقد أدى غياب القيم الفاضلة إلى الاستهانة بها وانتهاكها والجهر بسوء الفعل والخلق، حيث غاب الوازع الأخلاقي الذي يردع الناس عن ارتكاب القبيح من الأفعال والتصرفات⁽¹⁾:

قد سقط العارُ فلا عارُ
وليس للأحرار أنصارُ

واستضعف الحقُّ وقلَّ الحيا
وصارَ للجهال أنصارُ

ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى تفكك المجتمع وفساده، وإلى غياب روح التكافل بين أفرادها، وتحلل العلاقات الأسرية حيث خضع المجتمع لسطوة علاقات مادية أنانية، أصبح فيها الغني المترف لا يرى بؤس الفقير، وصار الأب لا يراف بحال ابنه، والأبناء لا يمدون يد العون إلى آباؤهم⁽²⁾:

نحنُ في دهرٍ على المعد
وعلى الوافد لا يفضلُ
لو رأى الناسُ شريفاً
وهم إن طمعوا في زنا
م لا يُجدي أبوه
إن عَالَ بنوه
سائلاً ما وصلوه
دكاً بأكاه

وفي هذا الواقع صار الأدب مجلبة لليؤس ومدعاة للتغرب والعزلة، وصار العاقل مضطراً تحت وطأة الحاجة إلى مجارة أهل عصره في جهالاتهم، ومساييرتهم في حماقاتهم وإلا نبذوه وسخروا منه وصوبوا سهام انتقاداتهم اللاذعة عليه⁽³⁾:

فَإِنَّ الْعَقْلَ حِرْمَانٌ وَشَوْمٌ
أَرَى الدُّنْيَا بَدْوًا لَّهُمْ تَدُومُ

العزلة والاغتراب:

والواقع أن الأحنف كان مسالماً في دعوته إلى نقد أهل عصره فظلت اعتراضاته في إطار الحوار والنصيحة ولم تخرج عن ذلك إلى مستوى العنف أو الرغبة في التشفى والانتقام، ومن هنا كان يؤثر الوحدة والعزلة في لحظات اليأس والانسحاب⁽⁴⁾:

أرَوْعُ عَنْ كُلِّ ضِدِّ لِي يَخَالِفُنِي جَهْدِي وَيَتَّبَعُنِي فِي كُلِّ أَوْطَانِي

(1) دیوانہ ص 217.

(2) دیوانہ ص 530.

(3) دیوانہ ص 469.

(4) دیوانہ ص 518.

فصرتُ قسراً ألقى مَنْ يباغضني بما ألقى به أهلي وإخواني
وهو يرد على انتقادات أهل عصره له وتشهيرهم بفقره وخصاصة حاله بأن العاهة ولدت لديه
القناعة والرضى بالقليل (1):

إذا ما عابني أبناء جنسي بنقص الحظ والكسب الضعيف
وزادوا في السرفع واستطالوا بطيب العيش عن ترف وريف
بسطتُ لديهم بالضعف عذري وعجزني بالقناعة بالطفيف
فلا عجب أن مال الأحنف إلى حياة الانزواء وآثر الارتحال والغربة ووجد فيها سبيلاً للراحة
والخلاص مما يعاني منه ويشكو من أذى القول واللسان (2):

ألفتُ التغرب والغربة ففي كل يوم أختربة
وهكذا أصبحت العزلة والغربة فلسفة يؤمن بها الأحنف ويدعو إليها بعدما يئس من إصلاح
الأمر واستقامة أخلاق الناس من حوله (3):

تخل عن الورى كرمًا وطرفاً فقد فسدوا وصار الوصل مقنا
ينافقك الصديق وفيه مكر ويبدى ظاهراً مقنة وسمتا
فكن فرداً وحيداً سامرياً ولا تدر الوصال وأنت أنت

وقد لخص تجربته في الحياة والناس في تأكيده أن في عزلة المرء عن الآخرين راحة للبال
والضمير وكسباً للسلامة من شرورهم وعداوتهم فقال (4):

مَنْ أراد الملك والرا حة من هم طویل
فليكن فرداً من النسا س ويرضى بالقليیل
ويداري مرض الوحدة بالصبر الجمیل
يلزم الصمت فإن الصم ت تهذیب العقول

(1) ديوانه ص 366.

(2) ديوانه ص 123.

(3) ديوانه ص 139، والسامري: من لا يتغرب من الناس ولا يقتربون منه.

(4) ديوانه ص 413.

أَي عَيْشٍ لَامَرٍ يُصْـ	بَح فَيَحَال ذَلِيلِ
بَيْنَ قَصْدٍ مِنْ عَدُوِّ	وَمَدَارَاتِ جَهْلٍ
وَأَعْتَلَّ مِنْ صَدِيقِ	وَتَجَنَّنَ مِنْ مَلْءٍ
وَمَعَاشٍ بَغَاةٍ يَضِ	وَمَقَاسِ شَاةٍ ثَقِيلِ
وَاحْتِرَاسٍ مِنْ ظَنُونِ السَّوْ	ءِ أَوْ عَذْلٍ عَذُولِ
أَفٍّ مِنْ مَعْرِفَةِ النَّاسِ	سِ عَلَى كُلِّ سَبِيلِ

الكبدية والاستجداء:

وراء كديّة الأحنف واحترافه المسألة عوامل ذاتية وأسباب عامة يمكن استخلاصها مما سبق، وفي مقدمتها: العاهة الجسدية، وكساد صناعة الأدب وتراجع مكانة الشعر واختلال القيم⁽¹⁾:

حسبي ضجرتُ من الأدبِ
وهجرتُ إعرابَ الكلامِ
وتركتُ تفسيرَ المعاني
ورهنْتُ ديوانَ النقا
لا تعجبي يا هـنْدُ من
إنَّ الزمانَ بمن تقاد
والجهلُ يضطهدُ الحجا

ويدفع الأحنف عن نفسه لوم الآخرين له على احترافه الكدية وانخراطه في عالم المتسولين، حتى أصبح إمام الكدية في الشدذ والميزقة، وشيخ المكدين من بني ساسان⁽²⁾:

لَأَنْتُمْ لَا مَنِي أَطَالَ التَّعْدِي
قَالَ لِي: أَنْتَ فَيَلْسُوفَ حَيُولُ

لَمْ يَسِرْ بِالْمَلَامِ إِذْ لَمْ رَشْدِي
عَالَمٌ كَيْسٌ بَحْلٌ وَعَقْدُ

(1) دیوانہ ص 110.

(2) دیوانہ ص 180.

لَمْ تَكْدِي؟ فَقُلْتُ مَنْ ضَعْفُ جَدِي

وصف العكبرى في أكثر من قصيدة وسائله في الاحتيال والمكر، ومخرفاته في عالم التسول واختراع العلل وابتكار العاهات، والادعاء بمعرفة الطالع وقراءة البخت، وكتابة العطوف فيقول بأنه⁽¹⁾:

منجم شاعر له هم

ويُضَيِّفُ أَنَّهُ يَطُوفُ بَيْنَ الْقُرَى وَالرَّسَائِيقِ، يقرأ للنساء البخت ويصف ما يلاقي حين تكذب الأيام مخرقاته وأكاذيبه فيقول ساخرًا⁽²⁾:

وَوَضَعْتُ فِي طَلَبِ الْمَعَا
شِ لِكُلِّ حَانِيَّةٍ مُسْنَنَةً

أَدْعُو النِّسَاءَ إِلَى النِّجْمِ مَبْشَرًا بِخَوَاتِمِهِ

سَأَخَذَنَّ عَلَيْهِ عَيْنُونَهُ

فَإِذَا رَجَعْتَ وَلَمْ يَكُنْ مَاقَالَتِ فَيَمَانَاهُ

ش. _____ تمنني بجنونه _____ نه
س. _____ فاهة وأسد _____ بهنه

ويعترف العكبري أنه لا يحسن معرفة علم الفلك ولا يتقن صناعة التجيم، ولكنه يخرق بذلك طلباً للرزق، وأنه لا يؤمن بالتجيم، وما تعاطاه إلا بسبب الحاجة والفاقة وكساد العلوم⁽³⁾.

مَا تَكْسِبُتُ بِالتَّجْرِيمِ حَتَّى
صَارَ طَوْعُ الْأَيَّامِ غَيْرَ مَطِيعِ

ويعترف الأحنف أن الكدية أصبحت مصدر رزقه وأن الناس يشاركونه هذه المينة⁽⁴⁾:

فأستعصم الناس بأطباعي

نَعَتْ مُضْطَرَأَ الضَّعْفِ الْقَوَى

عَنْ نَبِيلٍ مَا يَدْرِكُهُ السَّاعَى

كما يعترف بانخراطه في عالم الشحاذين ومخالطة فئاتهم، وإتقان لغتهم الاصطلاحية، والسكن في مصاطبهم وأماكن سكنهم ولهوهم، وأنه عاش حياة المكدين بكل ما فيها من جنوح وخصوصية،

(1) دیوانہ ص 507، وجمرام: المریخ، وکیوان: زحل.

(2) دیوانہ حصہ 524.

(3) دیوانہ ص 336.

(4) دیوانہ ص 319.

وافتخر بنسبته إلى عالم المتسولين وانتمائه إلى بني ساسان⁽¹⁾ الذين تعددت الاجتهادات في تحديد شخصية ساسان والذي يبدو أنه شخصية غامضة نسب إليها أصحاب المهن والحرف وكل من يبتدع أنواع الحيل ويبتكر فنون العاهات ليكسب المال ويفوز به بالمخرقة والخديعة والاحتيال⁽²⁾.

عَلَى أَنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ
 بِفَخْرِي بَيْنِي سَاسًا
 مَلِكًا لَهُمْ الْأَرْضُ
 هُمْ السَّادَةُ وَالذَّاد
 بِهَالِكًا مَحَلًّا
 لَهُمْ أَرْضُ خَرَّاسَانَ
 إِلَى السَّاحِلِ فَالزَّابِ
 إِلَى الشَّامَاتِ وَالْمَاهَا
 حَذَارًا لِأَعْدَائِهِمْ

وللأنحف أكثر من قصيدة ضمنها ألفاظ المكدين الاصطلاحية، من بينها: قصيدته الدالية السابقة وثلاث قصائد أخرى، واحدة منها في رثاء المسيح إلخساح، ويبدو أنه من بهاليل المكدين، وأخرى في رثاء القاضي ابن دراج، وله قصيدة في الكدية يصف فيها علاقات المكدين وتجوأهم ومعاناتهم جاء فيها⁽³⁾:

إذا مرضتُ فعوادي ميازقةٌ
إنّي وطائفةٌ منهم على خلقِ
هم الصّاعليكَ إلا أنّهم عدلوا
مشردونَ حيارى في معاشهم

أولادُ ساسانَ أهلُ الضرِّ والعجفِ
من كلِّ ممّتحنٍ ينمي إلى سلفِ
عن السلاحِ إلى الأخبارِ والنّسفِ
ليس الفقيرُ من الدّنيا بمنتصفِ

(1) دائرة المعارف الإسلامية: ترجمة الشنتاوي والفندي وخورشيد، 46/11، وأنظر أدب الكندية في العصر العباسي: أحمد الحسين، دار الحصان ص 25.

(2) دیوانہ ص 158.

(3) ديهانه ص 357، العواد: زائرو المريض، والميازقة: الشحاذون والمتسولون.

الناسُ في الحرِّ في خيشٍ وفي نِعَمٍ ونحنُ في الحرِّ في القيعانِ كالهدفِ
يسقون في الخيشِ بالموزونِ إن عطشوا ماءَ السُّلُوجِ وماءَ المِزْنِ في لطفِ
ونحنُ نشربُ ماءَ السَّجْلِ في عطشٍ شربَ الكلابِ بلا كوزٍ لمغترِفِ
فإن سَكناً بيوتاً فهي مقفرةٌ أو في المساجدِ أو في غامضِ الغُرفِ

ولعلنا مما سبق نقول: إن الأحنف شاعر صور لنا عصره ومجتمعه في صورة دلت على اختلال القيم واختلاط المعايير، واضطراب الأوضاع العامة، وتراجع مكانة الأدب والأدباء، وجنوح طائفة منهم تحت وطأة الحاجة والمعاناة إلى امتيahan الكدية والمخرقة والتظاهر بالتحامق والجنون.

وبالتالي فقد جسد في شعره مساحة واسعة للشكوى الذاتية والنقد الاجتماعي، الذي لامس تشخيص الأسباب وتحديداتها في رؤية نافذة كانت على قدر واسع من التحليل الفكري والسياسي (1):

رأيتُ في النومِ دنيانا مزينةً مثلَ العروسِ مشَّتْ بين المقاصيرِ
فقلتُ جودي فقالت لي وقد حُسرَتْ إذا تخلصتُ من أيدي الخنازيرِ

والواقع أن الأحنف كان شاعراً من طبقة أبي الشمقمق وأبي العيناء، وأبي فرعون الساسي العدوي، وأبي المخفف، وأبي دلف الخزرجي، وابن سكرة الهاشمي، وابن الحجاج (2)، وجحظة البرمكي وغيرهم من الشعراء، الذين مثلوا أدب القاع الاجتماعي، وصوت التذمر والشكوى، فكانوا بأدبهم الشعبي هذا قد رسموا صورة الوجه الآخر للحياة في المجتمع العباسي، كما مثلوا تيار الأدب غير الرسمي، الذي حفل بتصوير مكابيات المعدمين، واعتراضات المسحوقين والمنبوذين، التي نقلها إلينا أولئك الشعراء بعفوية مباشرة، وأحاسيس صادقة، من خلال أنماط القصائد القصيرة والنثف والمقطعات الشعرية، التي كانت تدور في أكثر الأحيان حول موضوع محدد، أو فكرة عابرة، يتناولها الشاعر المكدي من مشاهداته اليومية، وتجاربه الذاتية، ويسوغها بإيقاعات خفية وأوزان مجزوءة، ومفردات وصور مستمدة من بيئة العامة، وقاموس الحياة الاجتماعية والشعبية آنذاك.



(1) ديوانه ص 253، والمقاصير: مفردة مقصورة، وهي المدار الواسعة المحصنة.
(2) أدب الكدية في العصر العباسي، أحمد الحسين، دار الحصاد، دمشق، ص 84 - 88.

المصادر والمراجع:

- السلطان، الرياض طبعة أولى، 1420هـ.
- (7) لسان العرب: ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد — مطبعة دار صادر — لبنان، 1414هـ.
- (8) معجم البلدان: ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله — دار صادر لبنان، 1399هـ.
- (9) المنتظم: ابن الجوزي، جمال تحقيق عبد العزيز مطر، دار المعرفة — مصر، 1358هـ.
- (10) يتيمة الدهر: أبو منصور الثعالبي عبد الملك بن محمد تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة دار السعادة، مصر، 1956هـ.

- (1) الأدب في ظل بني بويه: محمود غناوي الزهيرى - مطبعة الأمانة - مصر، 1368هـ.
- (2) أدب الكدية في العصر العباسي: أحمد الحسين، دار الحصاد - دمشق، 1995م.
- (3) البداية والنهاية: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل ابن كثير، مطبعة السعادة - مصر، 1977م.
- (4) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي، مطبعة الخانجي، القاهرة، والمكتبة العربية بغداد، 1931م.
- (5) دائرة المعارف الاسلامية - ترجمة: الشنتناوي والفندي وخورشيد، مصر، 1933م.
- (6) ديوان الأحنف العكبري، تحقيق سلطان بن سعد

